شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء القرون المتأخرة مباشرة بالقرن الرابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

١٦ الشاعر انطون بيطار الحلبيّ

هذا ايضاً احدى ثمار الدوحة الادبيَّة التي بسطت فروعها في الشهباء في القرن الثامن عشر وكانت باعثةً للنهضة الجديدة التي امتدَّت بعد ذاك الى انحاء سوريَّة

﴿لمحةٌ من اخباره﴾ من العجب العجاب اننا لا نجد احداً من كتبة الشهباء وباحثيها حاول حتى الآن ان يكتب تراجم هؤلاء الجهابذة الذين اولوا وطنهم فخراً. ومنهم انطون بيطار المذكور فانَّ تاريخ وطنهِ صامت عن ذكره. وكان أملنا من صاحب إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء السيد محمَّد راغب الطبَّاخ ان يُدوِّن اخباره واخبار زملائهِ النصارى الحلبيين في جملة شعراء القرن الثاني عشر فهما عن ذكرهم فصاهُ يدُّ الخلل في جزئهِ الاخير فانَّ آثار هؤلاء الادباء اوسع وأرقى مما اوردهُ عن كثيرين مِن المسلمين

فلا يبقى لنا إلَّا ان نعمل النظر في ديوانهِ فنستخلص منهُ لمعة من أخبارهِ

هو انطون بن شكرالله بيطار الحلبي الروم الكاثوليكي. كان مولدهُ في العقد الاوَّل او الثاني من القرن الثامن عشر. عُني منذ حداثتهِ بالآداب وبرع بالكتابة فخدم الدولة العثمانيَّة في دواوينها حتى صار باشكاتباً بين عمَّالها

ويؤخذ من ديوانهِ انهُ عاشر أدباء وطنهِ واماثلهم النصارى تشهد على ذلك رسالة منمَّقة وجَّهها الى الخوري نيقولا الصائغ رئيس الرهبانيَّة الحنَّاويَّة الهام جواباً على كتابةٍ مثلها. ولمَّا توفي الخوري سنة ١٧٥٦ قال انطون بيطار يرثيهِ (من الكامل):

أواهُ يا ذا الموت كم أرزيتنا بمصائبٍ دُهمٍ كليلٍ حِنْدِسِ
فاجأتنا ببليّة لم تُحتَملْ وفجعتنا بالاب نيقولاوسِ
وهدمتَ ركنَ حياتنا بفراقهِ وتركتنا نلقاهُ موتى الانفسِ
متأسفين وناحين ولابسين ردا الاسى والحزنِ اسوأ ملبسِ
سِرْ أيُّها الابُ السعيدُ الى العُلا متمتّعاً بالمجد ضمن الاطلسِ
وارتع مع الاطهار وامتعَنْ مع م الحمل الوديع على الرياض السندسِ
واسعد بحسن ختامِ تاريخ وسر متمتّعاً بنعيم ربَّ اقدسِ

وشارك انطون بيطار اهل طائفته بما نالهم من الاضطهاد من اعدائهم وخصوصاً في ايام بطريرك الفرتيوسيين سلبسطرس التبسي وذويه. وقد ذكر الشهيد ابرهيم بن ديتري بن يعقوب الدلال المستشهد سنة ١٧٤٢ في عيد الاضحى فرثاهُ بقصيدة مطوّلة اولّها (١ (من الكامل) :

يا صاحبي ما بالُ سكّان الحمى كلّا اراهُ والهاً يبكي الدما
أترى جرى خطبٌ عظيمٌ ام قضى نَدْبٌ كريمٌ أم رأيتُ توهُما
فأجابني والدمعُ يسبقُ نطقهُ هلّا سمعتَ بشاهدٍ قد ألّما
او ما علمت بانّ ابرهيمَ قد قتلوهُ منهاناً فعاد مكرّما
ام أنت يا هذا غريبٌ غائبٌ ابداً عنَ أورشليمَ لم تَدرِ بما
إخلَعْ نِعالك ثمّ أقبِل مُسرعاً نحو الضريح ضريحَ من قد عُظِّما
فأتيتُ نحو اللّحد أبصر ما جرى فرأيتُ ما شرَح الصديق وألمما
قومٌ عيونهمُ تدرُّ بوادرًا من حزنهم فكأنّهنّ عيونُ ما

١) وللخوري نيقولا الصائغ في ديوانه (ص ٨٠) داليّة في استشهادهِ

ناديتُهم لا تحزنوا بل فافرحوا انَّ الشهيد بصبره قد نال ما...
نال المواعيد التي ربُّ السما عنها اشار لتابعيهِ مثلما
حيًّا الحَيا حلباً وروَّى تربها اذ دمُ ابراهيم فيها قد هما
هذا الذي ضاءت كواكبُ فضله فلذاك عقلُ ذوي الغباوة أظلما
ما مات خوفاً من عذاب جهنَّم او رغبةً ان يقتني ملك السما
بل مات شوقاً في محبَّة ربِّهِ ذاك الذي في عشقهِ قد أُلِّما

الى ان قال:

طوباهُ اذ حاز الإهانة ههنا وغدا بملك الطاهرين مكرَّما
طوباك ابراهيمُ يا من قد علا فوق العلى متشرِّفاً متعظِّما
طوباك إسمع من اتى متوسِّلا كن لي شفيعاً في النشور تكرُّما
يوماً أُنادي مادحاً وموزِّخاً يا شاهداً بالموت قد ورَثَ السما

ولمَّا اتى جنَّاديوس مطران الروم الى حلب واغتصب كنيسة الكاثوليك سنة ١٧٦٦ قال انطون يهجوهُ (من الكامل):

أذرُوا الدموع على المصاب الجاريْ فلقد اتانا من سماح الباري
أبدوا نحيباً لم يشاهد مثلهُ مع كثرة الاصوام والاسهارِ
قد حلَّت الارزاء في ساحاتها بساجة من كثرة الاوزارِ

وهي في نحو مئة بيت ختمهُ بقولهِ في الظالمين:

وَسْطَ الجحيم مقامكم ابدًا الى دهر الدهور وآخر الأعصارِ

وكان انطون بيطار مقترناً بالزواج ماتت زوجتهُ الاولى لوسيا سنة ١٧٥٥ فرثاها بقصيدة طويلة تنبئ برقة عواطفهِ اوَّلها (من الكامل) :

يا دهرُ أُقسمُ بالكليمْ رفقاً بذي القلب الكليمْ
لم يبقَ لي غير الذي ابقيتَ من عظمٍ رميمْ

ومنها :

رحلَت وما نظرَتْ الى حالِ اليتامى واليتيمْ
بل احدقَتْ نظرًا الى النهجِ المؤدّي للنعيمْ
فكأنما زهدَتْ بنا وصبَتْ لمغناها القديمْ
والله يدعو من يشا الى النعيم المستديمْ

واقترن بعدها بزوجة اخرى توفّاها الله بعد ستّ سنين سنة ١٧٦١ فرثاها ايضاً . وفي ديوانهِ اشارة الى بعض افراد اسرتهِ في مقدّمتهم ابوهُ وامُّهُ له فيها ابيات في تاريخ وفاتها . وكان لهُ عمٌّ في اللاذقيَّة اسمهُ نعمة الله بيطار قد هنّأهُ ابنُ اخيهِ بولادة ابنهِ يوسف سنة ١٧٣٧ . وقد وجدنا في بعض المجاميع ابياتاً منسوبة الى ميخائيل بيطار الحلبي ولا شكَّ انهُ من انسبائهِ . ولم نقف على سنة وفاة انطون لكنهُ عاش الى ما بعد السنة ١٧٨٠ كما يظهر من بعض تواريخ ديوانهِ

﴿ديوانهُ﴾ وقفنا في حلب على نسخة من ديوانهِ منذ اربعين سنة فاستنسخناها واذا هي تحتوي على نيّف وعشرين قصيدة او قطعة شعريَّة في معاني الشعر المختلفة من مديح ورثاء وهجو وتهنئة واوصاف وتواريخ . فمن مديحه قصيدتهُ في الوزير ابي بكر باشا الذي قدم حلب سنة ١١٧٥هـ (١٧٦١م) فتزيّنت المدينة بقدومهِ (من الكامل) :

قِفْ في رُبى حلبٍ على أكمامها حيِّي منازلها بعَرْف خُزامها
بلدٌ اطاب الله حسن مناخها فزهت على ارض العراق وشامها

قد زانها ملكُ الملوك بزينةٍ كُتبت بشائرها على اعلامها
بصحيفة الزُّهرا ورَسم عُطاردٍ والمشتري يُملي على رسامها
سرُّ القلوبِ فاكثرت خير الدعا صَحَّ الدجى عطفاً على ايامها
لاسيما اذ خصّها بمدبّر يعطي الممالك رفعةً بنظامها
اعني ابا بكر الوزير فكم سمَتْ حلبٌ بهِ تعلو السما بمقامها
سعدتْ بهِ مذ حلَّ طالعَ بُرْجها فغدا دوامُ السعد من أحكامها

وهي طويلة. ولهُ رائيَّة في مديح سعدالدين باشا افتتحها بقولهِ (من الكامل):

للسَّعد في حلبَ البشائرْ ولقد بدا منها اشائرْ
قرَّت عيونٌ بعد ان للنجم قد كانت تساهرْ
وتعوَّضت بدل المذلّة م والهوانِ بخير ناصرْ

وختمها بهذا التاريخ:

أرَّختُ لا ريب يا للسعد في حلبَ البشائرْ

ولانطون بيطار جمّة تواريخ قالها في امور جرت في ايّامهِ منها في وفيات بعض السادات كالسيّد اُغناطيوس جربوع رئيس اساقفة حلب على الروم الكاثوليك سنة ١٧٧٦ وبعض اصدقائهِ كفتح الله بن شكري ارقش (١٧٥٥) وجرجي قز (١٧٥٨) ومنها في مواليد صغار او في عقاب بعض الاشقياء كباقي الدالي باش قاتل الحجاج (١١٨٣) قال فيهِ (من الخفيف):

انَّ باقي الشهير بالآفاقِ قد سقاهُ المنيَّة كأسٌ ساقي
قيل ابن المصيرُ منهُ فأرَّخْ قلتُ لا شكَّ في جهنَّمَ باقي

وكذا قولهُ في شنق الشقي اليهودي كبرئيل الموالي (١١٦٤هـ) (من المجتث):

ابن الهلاك دَعَوْهُ الى الهلاك المؤبَّدْ
في النار من غير شكٍّ تاريخهُ قُلْ تَخَلَّدْ

وارّخ رجوع السيد محمّد طه زاده الشهير الحلبي وكان نُفي ظلماً سنة ١١٨٥ (من الكامل):

ظنَّ العدى ان لا رجوع لغائبٍ مذ أظهروا ما في الضمائر كامنا
فازداد اجلالاً وعاد فأرّخوا ها ردَّهُ الله بخيرٍ آمنا

وارّخ عمارة بيت جديد (من الكامل):

أكرم بهِ بيتاً بأعلى سفحةٍ فيهِ انتعاش الروح باللذّاتِ
فهو كفردوس السما ارّختُهُ مأوى السرور وجامع النُّزهاتِ

ولشاعرنا ايضاً موشّح قالهُ في مولد الياس انطون ابن جرجس عائده من زوجته ساره بعد ان لبثت عقيماً عدّة سنين سنة ١٧٥٢ (من الرمل):

يا لَكُمْ جاد لنا ربّ السما نعماً وافت بروح القُدُسِ
فلهُ الحمدُ على ما انعما من غلام بهجة الدنيا كُسي

دور

حينما الربُّ لسارا قد نظرْ ولدت طفلاً بديعاً لا نظيرْ
وكذا راحيلُ من ربّ البشرْ جاءها يوسفُ بالخير بشيرْ
أبشروا انَّ ليالينا غُررْ وهب الله لنا الظبيَ الغريرْ

انَّ لله تعالى حكماً تُشرق الشمس بداجي الحندس
ما عليهِ من عسير كما وهب النطق لسان الاخرس

دور

لاتقل فيما جرى كيف ودَعْ من لهُ الامرُ وكن انت وَدِيعْ
ليس أذناي ثقيلاتِ السمَعْ فاطلبوني تجدوا قال السميعْ
هاهو اليوم الذي الربُّ صَنَعْ فافرحوا فيهِ فذا خير الصنيعْ
واشكروهُ عزَّ قلباً وفماً أن من يحمدهُ لم يَيْأس
بارئ الخلق اليهِ المنتهى موجد الكونَين محيي الأنفس

وهي عدَّة ادوار تشعر بتقى قائلها وجودة قريحته

امَّا آثارهُ النثريَّة فنذكر منها هنا مثالاً وذلك جوابهُ الى الخوري نيقولا الصائغ الذي اشرنا اليهِ

يقبِّل البسيطة عبدٌ بين يدي الاب العام المحترم الخوري نقولا شرَّفه الله تعالى أولى ما نطقت بهِ ألسنة الاقلام البديعة ، ونبتَ في رياض الافهام زهر بديعة . واستهلَّت بهِ ابكار فرائد المعاني ، وتطرزت بهِ صدور الدفاتر بذكاة ابن هاني ، شكرٌ ان وشَّحنا ثوب ايضاح معانيهِ اللطيفة ، وشرَّفنا بابداع علومهِ الشريفة ، وهذَّبنا حسن النسق منهُ بتزاهتهِ عن هذه الدنيا الدنية ، وادبنا ببراعة الطلب منهُ واستعانته بمن يبلغ منهُ المنية ، وحمدٌ لمن احسن الاتباع باشتراكهِ في فضايل الاباء المكمَّلين نوادر الحقيقة ، ومدحٌ لمن رصع تسجيع اوزانه بدرر التشبيه ومساواة اهل الطريقة . اعني بهِ من أهديه تقبيل المنسم وهو الاب القانوني المكرم . والسيد الرئيس المفخم ركن الملَّة الملكيَّة ، والمعلم البار المتشرف بالدرجة الكهنوتيَّة ، من شيَّد اعمدة الدين ، واهدي بعلومهِ كثيراً من الضالين ، الذي نظم هاتيك الدرر من كلامه ، ونثر جواهر المعاني من نظامهِ

وبعد العروض لدى الحضرة العلية، والطلعة البهية ، اني في ابراك وقت واشرف ساعة وردت علينا عزيزة مشرفتكم الشريفة ، وفريدة الفاظكم اللطيفة ، فلثمنا ختامها وفضضناها، وفهمنا رموزها ومعناها ، فكانت احلى من العافية للجسم السقيم ، والذ من السلم بعد العذاب الاليم . فيا لها من جواهر اذا مسّها مفتقر الى البيان اغناه جوهرها ، وخرائد جمعت بين الحسن والاحسان منظرها طيّبٌ ومخبرها

كتبتُ فلولا ان هذا محالٌ وذاك حرامٌ قستُ خطَّك بالسحرِ
فان كان زهرًا فهو صنعُ سحابةٍ وان كان درًّا فهو من لجّة البحرِ

فحلّيت لساني بعقود انشائها الدرّية، وأطلعت في فلك المسامرة كواكبها الدرية، ودعيت لكم بدوام البقاء وعلو الارتقاء ، فحياكم الله واحياكم . وجعلنا لديكم من المنتمين، وقرننا في زمرتكم مع جملة الاباء القديسين

ولكن يا سيدي من ابن للعبد ان يتشرف المكاتبة مولاه ، ويفتخر بتذكره على من سواه ، وما هذا الّا من لطف المخدوم على الخادم ، ومن شيم اخلاق اهل المكارم :

تذكّرني مولاي شدّ درّهُ وشرّفني حتى حويتُ المراتبا
وكاتبني الدنيا بأحرف كتابةٍ فكنتُ لهُ عبدًا فصرتُ مكاتبا

وهل يمكنني يا سيدي ان املي كتابًا او ارد جوابًا، مع اني من المبتدين العاجزين، وفي قرة اهل الفصاحة معدود من جملة العاجزين ، وما اظنّ جنابكم الّا قصدتم تشجيعي، لتختبروا تسجيعي ، وتهدوني الى الطريق المستقيم، الذي حضرتكم عليه مقيم . فمن ابن لي ان يتفسر هذا المرام، ويا حبذا ان صحّت الاحلام، ولكن الامر فريد ، والسير في طريقه بعيد :

تنبّهها الرقشين ودارها بوادي الغضا يا بُعد ما أتناءُ

وارجو من الله جل شأنه ان ينجني التيسير، وحاشا ان يكون عليه امر عسير، ومع هذا كلما حاولت ان ارد لكم جواب ينعقد لساني ، ويقصر عن السير في هذا الميدان عناني ، اعلمي انكم عمدة الفصحاء والمتكلمين ، وكنز الناظمين والمنشئين،

الى ان سهل الله ببلوغ الامل ، ورفعتُ عن جنباني برقع الخجل ، فعجبت من نفسي كيف تجرأت واهديتُ الصدف الى معدن الدُّرر ، وقابلت بنفثة ماء يوادر المطر :

انّى أُقابلُ بحرًا فاض لؤلؤه بنفثةٍ من غدير الماء فيّاضِ
ام كيف أُرفلُ في ثوبٍ به قِصَرٌ من الفصاحة رثٍّ غير فضفاضِ

وما تجرأتُ على هذا الامر الّا لعلمي انكم اهلٌ للكرم ، وان العذر يقبل عن زكي الشيم ، وان تجد عيباً فسُدَّ الخللا ، ثم المبدي لجنابكم انني حثثتُ قريحتي الجامدة ، واضرمت نار فكري الخامدة ، لكي اكسرف في مديحكم بقصيدة من نظمي لعلمي ان ذكركم يهذّبها ، ومديحكم يؤدبها ، وان كنت لست من فرسان هذا الميدان ، ولا من قليدة هذه العقيان ، ولست من الخيل السابقة ، ولا الجياد اللاحقة . لكنني اتبعت قول القائل :

اذا منعتك اثارُ المعالي جناها الغضّ فاقنع بالشميمِ

وها عذري اوضح من الشمس المضيّة ، اذ انني لا اعرف شيئاً من العلوم العربية ، سوى من العروض الاندلسية وقليلاً من الخزرجية ، وما عدا هذا وعزيز حياتك يا سيدي لم اقرأ شيئاً على استاذ انما اهوى مطالعة الكتب كثيرًا . واجهدُ ذهني لكي افهم منها قليلاً . وخاطري ابو عذره ، ومقتضب حلوه ومره ، فاعذرني يا سيدي واغفر لي عن جرأتي هذه وسامحني بما نطقت في مديحكم . وما وفيت حقهُ حين قلت :

حيّا الحيا لليالٍ في رُبى حلب قضيتها مرحاً في غاية الطربِ
مرّت بنا كوميض البرق مسرعةً وما انقضى وطري منها ولا اربي

الى ان قال :

فاقت بفردوسها كلَّ البلاد كما قد فاق مدحي لنيقولاوس النَّجبِ
الناشر العلمَ نشر الزهد مع رهبٍ والطاوي الجهلَ طيَّ الكبر والعجبِ

مذ قد براهُ الـه الخلق منفعـةً ... بصدق رشدٍ لاهل الغي والكذبِ
اعطاهُ من روحهِ نطقاً وشرَّفـهُ ... او ما تراهُ انار الكون بالحُطَبِ
اعزَّه الله بالكهنوت تكرمـةً ... بروح قدسٍ عليهِ منهُ منسكبِ
فريد هذا الورى علماً ومعرفـةً ... عـلَّامة المـلَّتين العُجم والعربِ
حديدُ ذكرٍ بسيطُ العلم وافرهُ ... سريع نظمٍ بديهٍ كاملُ الادبِ
اللوذعي الاريب النَّدب مركزه ... اعلى العلى يزدري بالسبعة الشهبِ
تخذتُ مدحتهُ دون الورى شرفي ... دهرًا ومدحُ سواه ليس يجملُ بي
وجاء مدحي لـه نقشاً على حجرٍ ... اضحى كوضع الهِنا في موضع النُّقبِ
طيٌّ ونشرٌ وانشاءٌ لـه وكـلا ... للغيِّ والرشدِ والايمان والرهبِ
روى اراضي قلوبٍ مَحْلةٍ بندى ... علمٍ ووعظٍ وزهدٍ منه كالسحبِ
اذكى مصابيح دين الحق ثم هدى ... الى الهدى بضياها قلب كل غبي
مدحي تشرَّف في ابن السادة النُّجبِ م ... ابن السادة النجب بن السادة النجبِ
يا ذا التقى يا فريـد العصر يا املي ... هل ملتقى انني في غاية الوصبِ
من نعمة الله قـد وافيت ذا نعمٍ ... يا خير إبنٍ ابٍ من خير إبن أبِ
رفعتَ رايات امر الله منتصبـاً ... لـنشر دينٍ بهـلم غير منشطبِ
كم قد اضا منك ديواناً بنور تقى ... أنَّتْ فيهِ دجى الآثام والنوبِ
وان يُكُنْ للـورى كتب ملفَّقةٌ ... فـان في الخمر معنى ليس بالعنبِ
خذها اليك وقد جاءت مطوقةً ... بعقـد درٍّ مديح فيك منتخبِ
مني عليك سلام الله مـا طلعت ... شمسُ النهار ولاحت سبعة الشهبِ
وما ابتدى بعد حسن الختم منشدُها ... حيًّا الحيـا لِلَيالٍ في ربى حلبِ

(لها بقيَّة)